Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.29, Issue: 2022

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد التاسع والعشرون، 2022م.

إشْكاليّةُ عَودِ ضَميرِ المُفردِ إلى المُثَنّى في العَربيّة

The problem of returning the singular pronoun to the dual in Arabic

د. أيّوب جرجيس العطيّة
أستاذ مساعد(مشارك) في وزارة التربية/العراق

Abstract

This search deals with the issue of return of the singular pronoun to the dual and its uses in Arabic with the aim of making it easy for the speakers of it. So I needed to search and follow proofs.

This research consists of introduction and three axes and the approach followed is based on induction and analysis.

I came to the conclusion that the singular pronoun can return to the dual and I stated that in details in the research .The return of the singular pronoun to the dual shows the capacity of Arabic language , in addition , it is easy for writers and researchers to use this method

Keywords: singular pronoun, significance, dual, duality

الملخص

يهدفُ هذا البحثُ إلى الكشفِ عن قضيةِ (عودة الضمير المفرد إلى المثنّى)، واستعمالاتِه في العربية؛ بغية التسهيل على الناطقين بها؛ فوجب استقراء

كلام العرب، وأهل اللغة، وتتبعَ الشواهد لبيان حكمه؛ لذا قسّمته إلى مقدمةٍ وثلاثةِ محاور، وأمّا المنهجُ المتبعُ فهو منهجٌ مركبٌ من الاستقراء والتحليل.

وتبيّنَ أن الضميرَ المفردَ يمكنُ أن يعودَ إلى المثنى في تفاصيل في البحث. وأنّ عودة الضمير المفرد إلى المثنّى تبيّنُ سعةَ العربيةِ، وتيسّرُ على الكتاب والباحثين استعمالَ هذا الأسلوب.

الكلمات المفتاحية: الضمير المفرد، المثنى، الدلالة، التثنية.

المقدمة

تتميَّزُ اللغةُ العربية بوفرةِ أساليبها وكثرة مفرداتها؛ ونتيجة لذلك تتَّسم بكثرة أحكامها، ومن جملة هذه الأحكام هو عودة الضمير المفرد إلى المثنى، فأردت الكشف عنه.

مشكلة البحث:

هل يعود الضمير المفرد إلى المثنّى..؟

ثم اعتراضُ بعضِ الكُتّاب على عبارات، نحو: (فدخلتْ من يافوخه إلى عينيه، ففتحها). و(دعْ عينيك تسافرُ في المعجم)؛ لأن الضمير المفرد لا يجوزُ أن يعودَ إلى المثنى.كما يرون.

أهداف البحث: الكشفُ عن عودةِ الضمير المفرد إلى المثنّى. والوقوفُ على مرونةِ العربيةِ في قواعدِها وصيغِها، وسعتها.

أهمية الدراسة: تأتي أهميتها من بيان حكم صحة بعض التراكيب، مثل: عودة الضمير المفرد إلى المثنّى تبيّنُ سعةَ العربيةِ، وتيسّرُ على الكتاب والباحثين استعمالَ هذا الأسلوب.

الدراسات السابقة:

ثمةَ دراساتٌ عن الضميرِ وأحكامِه منها:

1- مرجع الضمير في القرآن الكريم مواضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب للدكتور مُحَمَّد حسنين صبرة[1]، ولا يشير إلى الخلاف إلا نادراً، وقد رتب مواضع الضمير بحسب ترتيب القرآن، ولم يشر إلى مسألة عود الضمير المفرد إلا لماما.

2- الضمائر في القرآن الكريم، نوري حساني علوان[2]. ولم يتطرق إلى عود الضمير إلى المثنى.

3- إجراء ضمير الغائب مجرى اسم الإشارة في القرآن الكريم وأثره في التفسير د. حمدي مُحَمَّد ضيف حسن، لكنه اقتصر على ضمير الغائب فقط.[3]

المهادُ :

(الضميرُ) مصطلح شائع في العربية؛ لذا سنبدأ بتعريفه ومرجعه.. ثم الحديث عن عود الضمير المفرد إلى المثنّى.

تعريف الضمير: من أضمر: وأضمرت السّر: أخفيته، والضّمير: السّر وفي داخل الخاطر، والضَّميرُ: الشيءُ الذي تُضمِرُه في ضَمير قلبِكَ، وأَضْمَرَتْه الأَرضُ: غَيَّبَتْه إمّا بمَوْتٍ، وإما بِسَفَر، وأضمره: أي كَنى عنه. والضُّمْرُ الهُزالُ. [4].

وبهذا يتبين أن الضمير في اللغة يدور معناه حول أمرين: الهزال، والخفاء، والذي يعني البحث هو المعنى الثاني (الخفاء)، أما تعريفه اصطلاحا، فقد تعددت ألفاظ النحويين في تعريفه؛ إلا أنها تدور حول مفهوم واحد وهو: اسم جامد يدل على متكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدم ذكره معنى أو لفظا أو حكما.[5]

و(العود): هو الرجوع، ويسمّى بـ(العائد، والمرجع، والمفسِّر)، وكثيراً ما سمّي مرجع الضمير بالعائد، [6]، ولا بد للضمير من مرجع يعودُ إليه كما قال الكفوي[7].

البحثُ:

للضمير العائد إلى المثنى أحكام متفرقه في بابي: الضمير وباب: كلا وكلتا، وفي أبواب متفرقة، فارتأيتُ أن يكون الحديث عنه وفق محاورَ معيّنة؛ لأرى صحة الاستعمالات الآتية:

كلا الرَّجُلينِ سافرَ ..... كلا الرَّجُلينِ سافَرا

وكلتا العَينينِ تنظرُ..... وكلتا العَينينِ تَنظرانِ

محمدٌ وأبوه أولى أنْ يكرمُوه.... محمدٌ وأبوه أولى أنْ يكرموهما

الرَّجُلانِ سافرَ ..... الرَّجُلان سافرا

دعْ عينيك تُسافرُ.....دع عينيك تسافرانِ.

والمحاور الثلاثة التي سنفصّل فيها الحديث هي:

المحورُ الأوّل: الضميرُ المفردُ العائدُ إلى المثنّى (كلا وكلتا):

وهذا الأسلوب وارد في كلام العرب، وحينما تحدث النحويون عن(كلا، وكلتا) قالوا جاز في لغة العرب (المطابقة)، فيَقُولُونَ: كلا الرجلَيْن خرجا، وكلتا الْمَرْأَتَيْنِ حضرتا.

وَالِاخْتِيَار أَن يوّحد الْخَبَر فيهمَا، أي:(المخالفة)، فَيُقَال: كلا الرجلَيْن خرج، وكلتا الْمَرْأَتَيْنِ حضرت؛لِأَن (كلا وكلتا) اسمان مفردان وضعا لتأكيد الاثنين والاثنين، وليسا فِي ذاتهما مثنيين؛ وَلِهَذَا وَقع الْإِخْبَار عَنْهُمَا كَمَا يخبر عَن الْمُفْرد. ورَدُّ الضمير مفردًا حملًا على اللفظ جاء ذلك كثيرًا، كما قال صاحب الإنصاف، وَاستدلوا بما جاء به الْقُرْآن، ومنه قَوْله تَعَالَى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33] فقال: ﴿آتَتْ﴾ بالإفراد حملًا على اللفظين، ولو كان مثنى لفظًا ومعنًى لكان يقول: ﴿آتَتَا﴾ كما تقول: الزيدان ذهبا، والعمران ضربا، وقال الشاعر:

كِلَا أَخَوَيْنَا ذو رجال، كأنهم... أُسُودُ الشّرَى من كل أَغْلَبَ ضَيْغَمِ[8]

فقد أفرد (ذو) في الإخبار عن (كلا)حملاً على اللفظ، وهو الأفضل، والأرجح؛ ولو ثُنَّى (ذو) حملاً على المعنى لجاز.وقَول الشَّاعِر:

كِلَانَا يُنَادي يَا نزارُ وبيننا... قِنَا من قِنَا الخطّي أَو من قِنَا الْهِنْد[9]

وَمثله قَول :

كِلَانَا غنيّ عَن أَخِيه حَيَاتَه... وَنحن إِذا متْنا أَشدُّ تَغَانِيًا[10]

فَقَالَ الأول: كِلَانَا يُنَادي، وَلم يقل: يناديان، وَقَالَ الآخر: كِلَانَا غنيّ، وَلم يقل: غنيّان، وقال الشاعر:

كلاهما حين جَدَّ الجَرْيُ بينهما... قد أَقْلَعَا، وكلا أَنْفَيهِمَا رَابِي [11]

وقال الأعشى:

كلا أبويكم كان فرعاً دعامةً... ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصاً[12] أي أنه أعاد الضمير إلى (كلاهما) في العبارة الأولى مثنى، فقال: (أقلعا) حملًا على المعنى، وقال (رابي)مفردا حملًا على اللفظ، وفي :(كان فرعاً)، فلم يقل(كانا)مراعاة للفظ (كلا)، فدلَّ ذلك على جواز مراعاة لفظ (كلا وكلتا)، ومراعاة معناهما.

وعود الضَّمِير المثّنى إِلَى (كلا وكلتا)مطابقةً على الْمَعْنى، والإفراد على اللَّفْظ وَهَذَا مثل (كُلّ) و (مَن) فإنَّ الضَّمِير يعود إِلَى لَفْظهمَا تَارَة كَقَوْلِه تَعَالَى ﴿وكلّهم آتيه يَوْم الْقِيَامَة فَردا﴾ [مريم: 95] و ﴿بلَى من أسلم وَجهه لله﴾[البقرة 112]، وَتارَة يجمع حملا على الْمَعْنى كَقَوْلِه تَعَالَى ﴿وكلٌّ أَتَوْهُ داخرين﴾ [النمل: 87] و ﴿وَمن الشَّيَاطِين من يغوصون لَهُ﴾[الأنبياء: 82] ﴿وَمِنْهُم من يَسْتَمِعُون إِلَيْك﴾ [يونس: 42]

وأما رَدُّ الضمير مثنّى حملًا على المعنى فعلى ما حكي عن بعض العرب أنه قال:(كِلَاهُمَا قَائِمَان، وكِلْتَاهُمَا لقيتهما)، وهو قليل حتى قال الحريري:((فَإِن وجد فِي بعض الْأَخْبَار تَثْنِيَة خبر عَن كلا وكلتا فَهُوَ مِمَّا حمل على الْمَعْنى، أَو لضَرُورَة الشّعْر))[13].

المحورُ الثّاني: الضميرُ المفرد العائد إلى المثنّى القياسيّ صيغةً المتلازم معنىً:

ونعني بـ(المثنى صيغة) أي: بصيغة التثنية هي الألف والنون مثل: رجلان، كاتبان، ومسلمان، بخلاف المثنى العددي مثل: مُحَمَّد وأخوه سافرا، و خالد و أبوه حضرا، ونعني بـ (المتلازم معنىً) أي:أن جزآها لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، مثل: العينين، الأذنين، الوجنتين، الرجلين، الساقين، والذراعين.

ونصَّ صرّاحة بعضُ النحويين على جوازِ عودِ الضمير المفرد العائد إلى المثنى صيغةً المتلازم معنىً، واستدلوا بشواهد منها: ولو بَخِلَتْ يداي بها وَضَنَّتْ... لَكان عَلَيَّ لِلقَدَرِ الخِيارُ[14].

فقال :(ضنَّت) بعد قوله (يدايَ) والأصل أن يقول :(وضنّتا)، . وقال الآخر:

وكأنَّ في العَينَينِ حَبَّ قَرَنْفُل... أو سُنْبُلاً كُحِلَتْ به فانهلَّتِ[15]

فقال:(كُحِلَت به) بعد قوله (في العينينِ)، وليس بهما. وقد ذكر القَرَنفُلَ والسُّنْبُلَ. [16]

وَقَول أبي الطّيب:

حَشَايَ على جَمْرٍ ذَكيٍّ مِنَ الهَوَى....وَعَيْنايَ في رَوْضٍ من الحسنِ تَرْتَعُ[17]

مَعَ تمكنه من أَن يَقُول: وعيني دليلٌ على أَنه لَا فِي مقَام الضَّرُورَة.

وجاء في خزانة الأدب أن هذا الأسلوب قريب من وُقُوع الْمُفْرد موقع الْمثنى فِيمَا يصطحبان وَلَا يفترقان كَقَوْلِك: عَيْني لَا تنام أَي: عَيْنَايَ وَإِنَّمَا قَالَ: قريب مِنْهُ؛ لِأَن الْعبارة وَقع فِيهَا الْمُفْرد فِي موقع الْمثنى، وَالْبَيْت(حَشايَ على....) وَقع فِيهِ الْمثنى، وَهُوَ(عَيْنَايَ) فِي مَوضِع الْمُفْرد؛ لِأَن خَبره (ترتع) وَلَيْسَ فِيهِ ضمير اثْنَيْنِ[18]

وقَالَ أَبُو حَيَّان فِي تَذكرته:((قَالَ أَبُو عَمْرو: وَإِذا كَانَ الِاثْنَان لَا يكَاد أَحدهمَا ينْفَرد من الآخر مثل الْيَدَيْنِ وَالرِّجلَيْنِ والخفين فَإِن تقدم مثنّاه جَازَ لَك فِي الشّعْر وَالْكَلَام أَن توَحد صفته فَتَقول: خفان جديدٌ وجديدان وعينان ضخمةٌ وضخمتان؛ لِأَن الْوَاحِد يدل على صَاحبه إِذا كَانَ لَا يُفَارِقهُ. وَإِنَّمَا لم يقل ترتعان (في الشاهد السابق) لِأَن حكم الْعَينَيْنِ حكم حاسةٍ وَاحِدَة وَلَا تكَاد تنفرد إِحْدَاهمَا برؤيةٍ دون)) [19].

وَقد تحدث ابْن الشجري فِي أَمَالِيهِ عن الْبَيْت، فقالَ:((فَأخْبر عَن الِاثْنَيْنِ بِفعل وَاحِدَة؛ لِأَن العضوين لمشتركين فِي فعلٍ وَاحِد مَعَ اتِّفَاقهمَا فِي التَّسْمِيَة يجْرِي عَلَيْهِمَا مَا يجْرِي على أَحدهمَا.

أَلا ترى أَن كل واحدةٍ من الْعَينَيْنِ لَا تكَاد تنفرد بِالرُّؤْيَةِ دون الْأُخْرَى. فاشتراكهما فِي النّظر كاشتراك الْأُذُنَيْنِ فِي السّمع والقدمين فِي السَّعْي. وَيجوز أَن يعبر عَنْهُمَا بواحدةٍ تَقول: رَأَيْته بعيني وسمعته بأذني وَمَا سعت فِي ذَاك قدمي.))[20].

وذكروا أن هَذَا الْبَاب فيه أَرْبَعَة أوجهٍ من الِاسْتِعْمَال[21]: أَحدهَا: أَن تسْتَعْمل الْحَقِيقَة فِي الْخَبَر والمخبر عَنهُ، فيعود الضمير بالمطابقة، فتقول: عَيْنَايَ رأتاه، وأذناي سمعتاه، وقدماي سعتا فِيهِ.

وَالثَّانِي: أَن تعبر عَن العضوين بواحدٍ، وَتفرد الْخَبَر، ويتضمن المطابقة أيضا، حملا على اللَّفْظ تَقول: عَيْني رَأَتْهُ، وأذني سمعته، وَقدمي سعت فِيهِ. وَإِنَّمَا استعملوا الْإِفْرَاد فِي هَذَا تَخْفِيفًا وللعلم بِمَا يُرِيدُونَ. فاللفظ على الْإِفْرَاد وَالْمعْنَى على التَّثْنِيَة. فَلَو قيل:(وعيني فِي روضٍ من الْحسن ترتع كَانَ)جيدا.

وَالثَّالِث: أَن تثني الْعُضْو وَتفرد الْخَبَر أي: المخالفة؛ لِأَن حكم الْعَينَيْنِ أَو الْأُذُنَيْنِ أَو الْقَدَمَيْنِ حكم وَاحِدَة؛ لاشْتِرَاكهمَا فِي الْفِعْل فَتَقول: عيناي رَأَتْهُ، وأذناي سمعته، وقدماي سعت فِيهِ كَمَا قَالَ: وعيناي فِي روضٍ من الْحسن ترتع، وَمِنْه قَول امْرِئ الْقَيْس:

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زُلّ.....بهَا العَيْنان تَنْهَلُ[22]

وقَول المعرّي:

كـأنّ أُذْنَـيْه أعـطَتْ قـلبَه خـبَـراً....عـنِ الـسـمـاءِ بـمـا يـلقـى مـن الغِيَرِ[23]

فلم يبرز الضَّمِير فِي الفعل(أَعْطَتْ) مَعَ أنه أُسندَ إِلَى ضمير الِاثْنَيْنِ؛ لِأَنَّهُ قد نزل العضوين منزلَة عضوٍ وَاحِد لِأَن الْمَقْصُود بهما منفعةٌ وَاحِدَة. وَعَلِيهِ قَول امْرِئ الْقَيْس:

(وعينٌ لَهَا حدرةٌ بدرةٌ... شقَّتْ مآقيهما من أخر)

وَالرَّابِع: أَن تعبر عَن العضوين بِوَاحِد، وَتثني الْخَبَر حملا على الْمَعْنى كَقَوْلِك: أُذُنِي سمعتاه وعيني رأتاه.وَمِنْه قَول امْرِئ الْقَيْس وَهَذَا قَلِيل: وعينٌ لَهَا حدرةٌ بدرةٌ... شقَّتْ مآقيهما من أخر.[24]

وَقَول الآخر:

إذا ذَكَرَتْ عَيْنِي الزَّمانَ الذي مَضى... بِصَحْراءَ فَلْجٍ ظَلَّتا تَكِفانِ[25].

وأشار الرضي إلى أنه يجوز فيه مراعاة اللفظ والمعنى، نحو: نفوسكما أعجبتاني وأعجبتني، وكذا الوصف والإشارة، ونحو ذلك، (وقوع المفرد) (موقع المثنى والجمع) وقد يقع المفرد موقع المثنى فيما يصطحبان ولا يفترقان، كالرجلين والعينيين تقول: عيني لا تنام، أي عيناي[26]

وقد عقد الثعالبي فصلا سماه:(في الاثنين يُعبَّر عنهما مرَّة وبأحدهما مرَّة) وقال: ((قال الفرَّاء: تقول العرب: رأيتُ بِعَيني ورأيتُ بِعَيْنَيَّ، والدّارُ في يَدِي وفي يَدَيَّ. وكلُّ اثنين لا يكاد أحدهما ينفرد فهو على هذا المثال كاليدين والرجلين)) [27].

واستشهد بالأبيات التي مرَّ ذكرها.

قال ابن مالك:((ويعاقب الإفراد التثنية في كل اثنين لا يغنى أحدهما عن الآخر، وربما تعاقبا مطلقاً وقد يقع افعلا موقع افعل ونحوه، وقد تقدر تسمية جزء باسم كل، فيقع الجمع موقع واحده أو مثناه.))[28]

لذا يجوز أن يقال: (عيناهُ حَسَنةٌ، وعينهُ حَسَنتانِ) فتارة يعاقب في المسند وتارة في المسند إليه وتارة فيهما. واستشهد بقول الشاعر :

خليليّ لا تهلكْ نفوسكما أسىً... فإنَّ لها فيما به دهيت أُساً [29]

فقال: لها: دهيت ولو طابق المعنى لقال: لهما و:دهيتا.

وأنشد ابْنُ الأَعرابي:

سأُجْزِيكَ خِذْلانا بتَقطيعيَ الصُّوَى...إليكَ وخُفًّا زاحِفٍ تَقْطُرُ الدَّما[30]

قال تقطر، والأصل تقطران، وهذا من التعاقب في المسند إليه والمسند. ويقال:

وقعت عينه عليه أي عيناه وفلان حسن الحاجب أي الحاجبين وأخذ بيده أي بيديه وقام على رجله أي رجليه.

وقد وقفتُ على شواهدَ أخرى فيها عودُ الضمير المفرد العائد إلى المثنى صيغةً المتلازم معنىً هي:

1- الحديث: (أَعْظَمُ الْفِرَى مَنْ يُقَوِّلُنِي مَا لَمْ أَقُلْ، وَمَنْ أَرَى عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ تَرَ، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ) [31]..

وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ الْجُمْلَتَيْنِ عَنْهُ بِلَفْظِ: (مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ، وَمَنْ أَرَى عَيْنَيْهِ فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ تَرَ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ شَعِيرَةً - يَعْنِي بِأُخْرَى أَوْ بِنَفْسِهَا)، وروي: ما لمْ تريا[32].

2- حديث:(عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و على آله وسَلَّمَ- كَانَ إِذَا غَزَا قَوْمًا لَمْ يُغِرْ بِنَا عَلَيْهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ فَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلًا فَلَمَّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ و على آله وسَلَّمَ - وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا رَكِبَ وَرَكِبْتُ خَلْفَ أَبِي طَلْحَةَ وَإِنَّ قَدَمَيَّ لَتَمَسُّ قَدَمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...) [33]

3-وَمنه:قَولَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ:((قَالَتِ الْمَرْأَةُ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْهَا عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ: مَا لِلنَّاسِ يَنَامُونَ وَلَا تَنَامُ؟ قَالَ: إِنَّ جَهَنَّمَ لَا تَدَعُنِي أَنْ أَنَامَ. وَكَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: أَبَتْ عَيْنَايَ أَنْ تَذُوقَ طَعْمَ النَّوْمِ مَعَ ذِكْرِ النَّارِ)) [34].

4-عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ؛ قَالَ: قُلْتُ لِيزِيدَ بْنِ مَرْثَدٍ: مَا لِي أَرَى عَيْنَيْكَ لَا تَجِفُّ؟ قَالَ: وَمَا مَسْأَلَتُكَ عَنْهُ؟[35]

5- حديث النويري عن الروح:((.. فدخلت من يافوخه إلى عينيه، ففتحها آدم ونظر إلى نفسه طينا، ثم صارت إلى أذني..)) [36]

واعترض الأستاذ عبد القادر المغربي بقوله:(((ففتحها) صوابه (ففتحهما) إذ إن الضمير يرجع إلى العينين، وهو خطأ مطبعي)) [37].

وعقب عليه الأستاذ مُحَمَّد محمود رضوان:((إنه ليس على ذلك التعبير غبار، والعرب كثيراً ما تذكر الاثنين، وخصوصاً إذا كانا لا يكاد أحدهما ينفرد وذلك كالعينين واليدين والرجلين، وتعبر عنهما مرة وبأحدهما مرة، قال الفرزدق:

ولو بخلت يداي به وضنَّت... لكانْ عليَّ للقدرِ الخيارُ

..... فتعبير نهاية الأرب صحيح ليس عليه مأخذ.)) [38]، وهو الصحيح.

6- وَقَوْلُهُمْ: خَلِّ دَرَجَ الضَّبِّ أَي طَرِيقَهُ لِئَلَّا يَسْلُك بَيْنَ قَدَمَيْكَ فَتَنْتَفِخَ [39]، والأصل فتنتفخانِ

7-عَنْ عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ الرَّقَاشِيِّ قَالَ لِي أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ مَا لِي أَرَى عَيْنَيْكَ نَافِرَةً[40]

8- قوله:((عظم ربوبيّتك أنك تعبر البحر فلا تبتّل قدماك ولا ترسخ فيه.)) [41]

9- قولهم:((ضَعْ رِجْلَيْكَ حَيْثُ وَقَعَتْ وَلَا تَتَّقِ شَيْئًا)) [42]

10-إِنِّي عَدَانِي أَنْ أَزُورَكِ مُحْكَمٌ... مَتَى مَا أُحَرِّكْ فِيهِ سَاقَيَّ يَصْحَبِ[43]

11-فقالوا: ما لدمعهما سواءً... أكلتا مقلتيكَ أصابَ عودُ[44]

المحورُ الثّالث: الضمير المفرد العائد إلى المثنى عدداً غير المتلازم بجزئيه:

ونعني بـ(المثنى عددا) أي المثنى صيغةً غير المتلازمة معنىً كقولنا: الرَّجُلان فهو مثنى صيغة، بَيْدَ أن جزئيه غير متلازمين كالرجلين، أو نعني به (المثنى المعطوف) مثل: مُحَمَّد وخالد، خالد وأبوه، إسماعيل وإبراهيم وهكذا.

والأصل في العربية المطابقة بين الضمير العائد ومرجعه، فتقول: (الرجلان قاما) بدخول ضمير الاثنين وهو الألف، وكذلك ضمير الجمع، كقولك: (النّاس قاموا). لكن إذا قلنا:(الرجلان قام)، فذلك لا يستقيم عند بعض النحويين [45]

إلا أن ظاهر النصوص يُجيزُ أن يعود ضمير المفرد على المثنى، كما في قوله تعالى: (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) التوبة: 62.فقال: (يرضوه) بصيغة الإفراد، مع أن سياق الكلام يعود إلى الله ورسوله، فكان الذي تقتضيه قواعد

اللغة أن يأتي الضمير بصيغة التثنية، فيقول: (والله ورسوله أحق أن يرضوهما)، المعنى: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك، فاستغنى بإعادة الضمير إلى الله إذ إرضاؤه هو إرضاء رسوله فلم يحتج أن يقول: يرضوهما. (46)

وهو نظير قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11] أعاد الضمير على التِّجَارة؛ لأنها أهم وأغلب(47)، ومِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى :(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا) وَقوله(وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يرم به بريئا)، والأصل انْفَضُّوا إليهما، ويرم بهما.

ومثله قوله تعالى: (فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى) ولم يقل: فتشقيا؛ لأنّ آدم هُوَ المخاطب، وَفِي فعله اكتفاء من فعل المرأة. ومعنى (فَتَشْقى) تأكل من كدّ يدك وعملك. (48)، والعرب تفعل ذلك كثيراً، تخرج من الإخبار عن اثنين، إلى الإخبار عن واحد، وذلك أن كل شيئين إذا اصطحبا، وقام كل واحد منهما مقام صاحبه، وجرى على أحدهما ما يجري على الآخر، فإنها تفرد الإخبار عنه، وهي تريدهما معا.

وظاهر كلام سيبويه والمبرّد وابن يعيش أنه يجوز، وذلك في معرض حديثهم عن المصادر: (تربا لك وجندلا)، ومعناه ألزمك أو أطعمك تربا أي: ترابا وجندلا أي: صخرا.

قالوا:((واختزل الفعل هنا؛ لأنهم جعلوه بدلا من قولك: "تربت يداك وجندلت)) (49). والأصل: وجندلتا.

وذهب ابن السراج إلى جواز قولهم: زيدٌ وعمرو قاما، ويجوز: زيد وعمرو قامَ، فحذف (قامَ) من الأول اجتزاءً بالثاني وتقول: زيدٌ ثم عمرو قامَ، وزيد فعمرٌو قامَ وقد أجازوا التثنية، فتقول: زيدٌ فعمرو قاما وزيد ثم عمرو قاما، ولا يجيزون مع أحرف العطف:(أو) و(لا) إلا التوحيد، نحو زيد لا عمرو قامَ، وزيد أو عمرو قامَ ، و لا يجوز أن تقول: زيدٌ لا عمرٌو قاما؛ لأنك تخلط من قام بمن لم يقم، وكذلك لو قلت قَاما لجعلت القيام لهما إنما هو لأحدهما.(50)

وإلى هذا ذهب أبو البقاء، فأجاز: (زيد وَعَمْرو قَامَ) على حذف الْخَبَر من الثَّانِي اكْتِفَاء بِخَبَر الأول أَي: وَعَمْرو كَذَلِك. (51)

وعقد الثعالبيّ بابا: (الفصل الثالث عشر: في الجمع بين شيئين اثنين ثم ذكر أحدهما في الكناية دون الآخر والمراد به كلامهما معا.)، قال: ((من سُنَنِ العرب أن تقول: رأيت عمراً وزيداً وسلّمت عليه، أي عليهما. وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتقدير الكلام: ولا ينفقونهما في سبيل الله وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ وتقديره: انفضوا إليهما. وقال جلّ جلاله: ﴿وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ والمراد: أن يرضوهما.)) (52)

وأما إذا كانت المثنى بينهما حرف العطف(الفاء، ثم) فإن كان الضمير في الخبر عن المعطوف بهما مع المعطوف عليه فقال بعض النحويين: يجب حذف الخبر من أحدهما نحو: زيد فعمرو قام، وزيد ثم عمرو قام، ويجوز تقديم الخبر على الحذف من الثاني نحو: زيد قام فعمرو أو ثم عمرو، ولم يُجيزوا المطابقة؛ لأن تفاوتهما بالترتيب يمتنع اشتراكهما في الضمير.

وأجاز الباقون مطابقة الضمير(53) وهو الحق(عند الصبان) نحو: زيد ثم عمرو قاما، إذ الاشتراك في الضمير لا يدل على انتفاء الترتيب حتى يناقض الفاء، وثم إذ يقال قام الرجلان مع ترتبهما، والإضمار كالإظهار في هذا وإن لم يكن الضمير في الخبر وجبت المطابقة اتفاقًا نحو: جاءني زيد فعمرو فقمت لهما وجاءني زيد ثم عمرو وهما صديقان، وأما(لا وبل وأو وأم وأما ولكن) فمطابقة الضمير معها وعدمها بحسب قصد المتكلم فإن قصدت أحدهما وذلك واجب في الأخبار وجب إفراد الضمير نحو: زيد لا عمرو جاءني، وزيد بل عمرو قام، وأزيد أم عمرو أتاك، وزيد أو هند جاءني؛ إذ المعنى أحدهما جاءني ويغلب المذكر كما رأيت، وتقول في غير الإخبار: جاءني إما زيد وإما عمرو فأكرمته وأزيدًا ضربت أم عمرًا فأوجعته، وما جاءني زيد لكن عمرو فأكرمته، وإن قصدتهما معًا وجبت المطابقة

نحو: زيد لا عمرو جاءني مع أني دعوتهما وزيد أو عمرو جاءني وقد ذهبت إليهما قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135]، وليست أو بمعنى الواو كما قيل، والمعنى أن يكن غنيًا أو فقيرًا فلا بأس، فإن الله أولى بالغني والفقير. (54)

وأجاز هذا التركيب أحد شراح الألفية المعاصرين، فيجوز أن تقول: (الرجلانِ قام)، على أن (الرجلان) فاعل مقدم، و(قام) فعل مؤخر، وتظهر فائدة الخلاف في هذا المثال الثاني على رأيه، يقول البصريون :إنك تقول:(الرجلان قاما) وجوبا؛ لأجل أن يطابق الخبر المبتدأ، ولا يجوز:(الرجلان قام)، فهم يرون أن هذا التركيب غير صحيح، أما الكوفيون فيرون أن هذا التركيب صحيح، وأن (الرجلان) فاعل مقدم، وكلام الكوفيين أسهل (55)

وذكر قاعدة يعدها أصولية عظيمة في باب النحو، ألا وهي: إذا اختلف النحويون في شيء أخذنا بالأسهل.

وفي معرض حديث بعض النحويين عن تقدم الفاعل على فعله منعوا قول: (الزيدان قام)، وذكروا أن ثمرة الخلاف تظهر في التثنية والجمع فنحو: الزيدان قام والزيدون قام جائز عند الكوفيين ممتنع عند البصريين (56) وهذه الصورة الممتنعة هي إذا أعربوا (الزيدان) فاعلا و(قام)فعله الذي رفعه، وليس إذا تحمل ضمير المفرد أو التثنية أو الجمع.

وبغض النظر عمّا يُنسب إلى الكوفيين من قول:(جواز تقديم الفاعل على فعله)، فما قاله الشيخ: إنَّ التركيب (الرجلان قام) صحيح على رأي الكوفيين، وعدم صوابه على رأي البصريين فهو في الحقيقة أنَّ التركيب لا خلاف فيه بينهما، إنّما الخلاف في (عوده الضمير المفرد إلى المثنى) بين النحويين عامة، وكلام الكوفيين ليس أسهل من إعراب البصريين كما قال الشيخ؛ لأنه يُثير إشكالات عدة تحدث عنها بعض المحققين المعاصرين(57).

كما جاز أن يعود بضمير الجمع إلى المثنى ومنه قوله تعالى ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ النمل:45، قال :يختصمون، ولم يقل: (يختصمان) على المثنى، وهو (فريقان)، قالوا: ذلك باعتبار اشتمال الفريقين على عدد كثير.ونحوه ما تقدم قوله تعالى(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾) الحجرات:9)، فقال:)اقتتلوا)، ولم يقل: اقتتلتا، مع أن الكلام عن طائفتين؛ لِأَنَّهُمَا فَرِيقَانِ فِي حَالِ الْجَمْعِ، ومن هذا القبيل أيضاً، قوله سبحانه(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب)ص:21، فقال(: تسوروا)، ولم يقل: (تسورا) على التثنية، كما قال بعدُ :(خصمان بغى بعضنا على بعض﴾) ص:22)؛ وعليه يكون ضمير الجمع (تسوروا(مراداً به المثنى، والمعنى: إذ تسورا المحراب. (58)

الخاتمة

1-إنَّ من يُمعن النظر في استعمال العرب للمثنى وما يعود إليه، يجد من التوسع في ذلك، ما لا يجده في سواه.

2-من خلال نصوصِ اللغة، وآراء النحويين يجوز أن يعود ضمير المفرد إلى المثنى سواء كان المثنى متحدا أم معطوفا عليه، مسبوقا بـ(كلا وكلتا) أم غيرَ مسبوق؛ ولهذا يجوز أن نقول:

-كلا الرَّجُلينِ سافرَ ..... كلا الرَّجُلينِ سافَرا

- كلتا العَينينِ تنظرُ..... وكلتا العَينينِ تَنظرانِ

- محمدٌ وأبوه أولى أنْ يكرمُوه..... محمدٌ وأبوه أولى أنْ يكرموهما

- الرَّجُلانِ رحلَ ..... الرَّجُلان رحلا

-خالدٌ وعليٌّ قاما..... خالدٌ وعليٌّ قامَ

-دعْ عينيك تُسافرُ.....دع عينيك تسافرانِ.

وفي هذه الجملة يجوز في الفعل الأخير وجهان: الرفع (تسافرُ، تسافران) على أنه حال، أو الجزم (تسافرْ، تسافرا)؛ إذا أريد به جواب الطلب.

وعليه كان تخطئة الأستاذ عبد القادر المغربي لعبارة للنويريّ:(عينيه، ففتحها). واعتراضُ بعضِ الكتاب على عبارة (دعْ عينيك تسافرُ في المعجم)[59]، ليسا في محلّهِما.

الحواشي والهوامش

1 – دار غريب، ط1، 2001م

2 – رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2000م

3 – مجلة كلية الدراسات الإسلامية ببني بأسوان، العدد الثالث: جمادى الأول 1442هـ / 2020م 3

4 – العين (7/ 41)المخصص (4/ 40) المحكم والمحيط الأعظم (8/ 199) معجم ديوان الأدب (2/ 298) لسان العرب (4/ 492).

5 – شرح الحدود النحوية؛ لعبد الله بن أحمد الفاكهي.ص139.

6 – تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (1/ 564) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (3/ 121)

7 – الكليات، ص ٥٦٨

8 – أسرار العربية (ص: 210) والإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (2/ 361)، المفردات الغريبة: الشَّرى: موضع تُنسب إليه الأسود الشرسة. الضَّغم: العض الشديد؛ ومنه سُمي الأسد ضيغمًا.

9 – وَهو قول: العديل بن الفرخ الْعجلِيّ شرح ديوان الحماسة للتبريزي (1/ 305)، ودرة الغواص في أوهام الخواص (ص: 123)

10 – وهو من شواهد: التصريح: 2/ 43، والأشموني: 226/ 2/ 316 والمغني: 370/ 270، والهمع: 189، واللسان (غنا) ونسبه لمغيرة بن حبناء.

11 – التخريج: البيت للفرزدق في أسرار العربية ص287؛والخصائص 3/ 314؛وشرح التصريح 2/ 43؛ولم أقع عليه في ديوانه؛ وهو للفرزدق أو لجرير في لسان العرب 9/ 156؛ "سكف"؛ وبلا نسبة في خزانة الأدب 1/ 131، 4/ 299؛ والخصائص 2/ 421؛ وشرح شواهد الإيضاح ص171؛ وشرح المفصل 1/ 54؛ ومغني اللبيب ص204؛ وهمع الهوامع 1/ 41. شرح الأشموني لألفية ابن مالك (1/ 57)

12 – ديوان الأعشى الكبير ص149، والإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين (2/ 361) نهاية الأرب في فنون الأدب، هـ (3/ 274)

13 – درة الغواص في أوهام الخواص (ص: 123)

14 – ديوانه: 258. ديوانه 258، و التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه (ص: 40) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 553) شرح ديوان الحماسة، 392/1

15 – البيت لسلمى بن ربيعة في "ما اتفق لفظه واختلف معناه": 49، وله أيضًا في أمالي القالي: 4/ 39.

16 – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 553)

17 – شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستراباذي، ٣ / ٣٦٢

18 – شرح ديوان المتنبي للعكبري (2/ 235)، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 552)

19 – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 551)

20 – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 552)

21 – المصدر نفسه (7/ 552)

22 – تهذيب اللغة (15/ 313) البحر المحيط في التفسير (3/ 391) اللباب في علوم الكتاب (2/ 343) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (1/ 194)

23 – ديوانه سقط الزند، أبو العلاء المعري، دار بيروت ودار صادر، بيروت. 1376هـ-1957م. ص41

24 – شرح ديوان المتنبي للعكبري (2/ 235)، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 552)

25 – الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها (ص: 195) و ينظر الشاهد(إذا ذكرت.....) : بلا عزو في "ما اتفق لفظه واختلف معناه": 50، وهمع الهوامع: 1/ 50، وفقه اللغة: 252.

26 – شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستراباذي ج 3/ ٣٦١

27 – فقه اللغة وسر العربية (ص: 267)

28 – شرح التسهيل المسمى «تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد» المؤلف: مُحَمَّد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: 778 هـ) 1/ 412

29 – اللغة : أسى : حزنا. دهيت : أصيبت. أسا : بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة بضم الهمزة وكسرها أيضا وهو ما يأتسي به الحزين. القاموس : (أسى). وشاهده واضح من الشرح. وانظر البيت في شرح التسهيل : (١ / ١٠٨).

30 – شرح التسهيل 1/ 18 ولم يعزه لقائل: الخذلان: التخلي عن العون والنصرة، الصوى: جمع صوة، وهي ما غلظ من الأرض وارتفع، الخف: ما أصاب الأرض من باطن قدم الإنسان. المحكم والمحيط الأعظم (3/ 231) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي (7/ 551)

31 – مسند أحمد (28/ 190)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (7/ 2854) ونهاية المراد من كلام خير العباد (2/ 151).

32 – مسند الشاميين للطبراني (2/ 132) المعجم الكبير للطبراني (22/ 73) مسند البزار = البحر الزخار (12/ 295)

33 – مسند الشافعي (ص: 318)

34 – مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر (ص: 48)

35 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (5/ 164) والمجالسة وجواهر العلم (4/ 264)

36 – نهاية الأرب في فنون الأدب (13/ 11)

37 – مجلة الرسالة، أصدرها: أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: 1388هـ)، (356/ 73)1940م ص108

38 – المصدر نفسه العدد (362/ 72)

39 – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (1/ 314)، ولسان العرب (2/ 268)

40 – الورع لأحمد رواية المروزي (ص: 122)

41 – نهاية الأرب في فنون الأدب (14/ 245)

42 – المغرب في ترتيب المعرب (ص: 226)

43 – مقاييس اللغة (1/ 344) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (2/ 737)

44 – البديع في نقد الشعر (ص: 95)

45 – اللمحة في شرح الملحة (1/ 115) كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب (ص: 127)

46 – البحر المحيط في التفسير (6/ 15)

47 – اللباب في علوم الكتاب (2/ 33)

48 – معاني القرآن للفراء (2/ 193)

49 – الكتاب 1/ 158 والمبرد في المقتضب 3/ 222، وابن يعيش 1/ 122

50 – الأصول في النحو (2/ 76)

51 – الكليات (ص: 1001)

52 – فقه اللغة وسر العربية (ص: 226)

53 – الفصول المفيدة في الواو المزيدة (ص: 65)

54 – حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (3/ 182)

55 – شرح ألفية ابن مالك للعثيمين 194/2

56 – الأصول في النحو (2/ 228)، وأسرار العربية (ص: 81) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (2/ 77) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك (2/ 65)

57 – تحقيقات نحوية د.فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الأردن يناير 2007 ص96–104

58 – تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (9/ 186) تفسير القرطبي (17/ 169)

59 –كتابي دعْ عينيك تسافرُ في المعجم، دار البشير، الإمارات، الطبعة الأولى، 2021م.